

Claude Bruaire :

- Pour la métaphysique, éd. Fayard, Paris, 1981

8- Denis Zazlawsky :

- L'analyse de l'être, éd. de minuit, Paris, 1982

9- Philippe Lacoue-Labarthe :

- Sujet de la Philosophie, éd. Flammarion, Paris, 1979.

10- René Girard :

- La violence et le sacré, éd. Grasset, Paris, 1973
- Des choses cachées depuis la fondation du monde, éd. Grasset, Paris, 1978.

11- Michel Serres :

- Hermès de I à V, éd. de minuit, Paris, 1960 - 1980
- Le contrat naturel, éd. François Bourin, Paris, 1990.

12- Alain Badiou :

- L'écharpe rouge, éd. la découverte, Paris, 1981.

13- Michel Villey :

- Le droit et les droits de l'homme, éd. P.U.F Paris, 1985.

Luc Ferry et Alain Renault :

- Des droits de l'homme à l'idée républicaine, éd. P.U.F. Paris, 1985

العلم القديم في الأورغانون الجديد من فلسفة الطبيعية إلى فلسفة الاستفراء عند (ف. بيكون - F. BACON)

بقلم الأستاذ: عبد الحكيم هميسي
معهد الفلسفة - جامعة الجزائر-

مدخل :

تذكر كتب تاريخ الفلسفة عند ما تعرض لحياة (فرنسيس بيكون) (1561 -
1626) F.BACON العلمية أنه "دخل جامعة كامبردج في الثالثة عشرة (1573)
وخرج منها بعد ثلاث سنين دون أن يحصل على إجازة علمية ، وفي نفسه
ازدراء لما كان يدرس فيها من علوم على مذهب أرسطو والمدرسين." (1) ومن
ثمّة عقد العزم على اصلاح العلوم ، فوضع نصب عينيه مشروعا فكريا

(1) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الحديثة - دار القلم - بيروت (بدون تاريخ) ص : 44 .

ضخما أطلق عليه أسم : التجديد الاكبر (INSTAURATIO MAGNA) يتضمن

سته محاور كبرى هي :

1 - تصنيف العلوم

2 - الأورغانون الجديد أو علامات تأويل الطبيعة.

3 - الظواهرات الشاملة أو التاريخ الطبيعي والتجريبي ضد الفلسفة الواجب ابطالها.

4 - تدرج العقل في خيط المتاهة.

5 - التبشير أو الاستباقيات للفلسفة الثانية.

6 - الفلسفة الثانية أو العلم الفعال (1).

ويبدو بعد التأمل في مضمون هذه المحاور ككل أن (يكون) كان يهدف

إلى تأسيس فلسفة جديدة (= الفلسفة الثانية) وقد رأى أن ذلك لا يتحقق الا

بعد اعادة النظر في العلوم المتعارفة ، من حيث تصنيفها ، ومن حيث الأداة التي

ظلت تستخدمها . ويبدو أن تلك الأداة لم تعد بالنسبة ليكون صالحة لتأويل

الطبيعة وبالتالي وجب اختراع أداة جديدة بديلة لها ، وكذلك حصر وتصنيف

جميع الظواهر الطبيعية والتجريبية في تاريخ شامل لها. وبعد أن يتم كل هذا

يمكن ليكون التبشير بالفلسفة الثانية أو ما أسماه "العلم الفعال".

(1) - E.Brchier : Histelire de la philosophie , T: 2 , p.u.f , paris (1950) P: 21.

ولكن النظرة العابرة لمشروع فكري بهذا المحتوى تجعل أي انسان يستنتج أن المشروع كان أكبر من صاحبه ، وأكبر من أي شخص بمفرده مهما كانت قدراته . ولذلك لم يستطع (بيكون) أن يحقق منه إلا المحور الأول وبالكاد المحور الثاني ، وقد تمثل ذلك في أهم كتابين فلسفيين تركهما وهما :

1 - في كرامة العلوم وتنميتها ، الكتاب التاسع (DE DIGNITATE ET AUGMENTIS SCIENTIURUM LIBRI IX) وهو عبارة عن شرح وترجمة لآ تينية لرسالة نشرت منذ عام (1605) بالانكليزية تحت عنوان : (of proficience And Advancement of learning

2 - الأورغانون الجديد اوالعلامات الصادقة لتأويل الطبيعة NOVUMORGANUM SIVE INDICIA VERA DE INTERPRETATIONE NATURAE الذي صدر عام (1920)

وبالاضافة الى هذين الكتابين نشر (بيكون) رسائل عديدة يمس الكثير منها هذا المحور أو ذاك من محاور المشروع البيكوني الأخرى (1) ، كما ترك مؤلفات أخرى في الادب والقانون وفي الفلسفة أيضا (2) ولكنها قليلة القيمة

(1) حاول السيد (بريهية) أن يصنف تلك الرسائل بحسب محاور المشروع البيكوني لا بحسب تاريخ نشرها . أنظر : تاريخ الفلسفة ، الجزء 2 ص ص 20 - 23
(2) وهي كتاب "المحاولات" (1597) وكتاب "احكام القانون" (1595) وكتاب "أتلنتيس الجديدة" (1627) وكتاب التنفيذ الفلسفي" (1736).

بالنسبة لدارسي فلسفة سيكون بالمقارنة مع الكتابين السالفين.

ومادام الهدف الرئيسي لمشروع (يكون) هو تأسيس "علم فعال" أو "فلسفة ثانية" (ضد الفلسفة الولي القديمة) ، وبما أنه جعل ذلك متوقفا على المراجعة العامة للعلم الشائع في عصره ، وقد ظل ذلك العلم منذ أرسطو محكوما بالأطر العامة للفلسفة المشائية التي يعتبر المنطق والميتافيزياء الارسطيين جوهرها ونتاجها الأعلى ، فان النقد الذي ستتضمنه تلك المراجعة سيكون بالضرورة موجها ضد أطر تلك الفلسفة ، وستكون تلك المراجعة مجددة بقدر استطاعتها على تفويض تلك الاطر أو بعضها على الاقل.

وبما أن المنطق الصوري هو الأداة التي ظلت تلك الفلسفة تحكم بها العلوم وتوجهها صوب الغايات التي تريدها ، وما دام " الاروغانون الجديد" هو المحاولة الاولى في الفكر الأوروبي الحديث لتجاوز تلك الاداة فإننا سنركز على مضمون هذه المحاولة التي عرف بها (يكون) أكثر مما عرف بغيرها ، وغايتنا تكمن في تحديد ما به صار (يكون) في عداد الفلاسفة ، أي فلسفته الخاصة من حيث تطورها وقيمتها. ونحن بذلك نحاول ان نتلمس أحد تمفصلات الفلسفة الحديثة مع الفلسفة القديمة.

ومادام "الأورغونون الجديد" في عمومه مناهضة للعلم القديم ، وبما أن مناهضة العلم القديم كانت شائعة في مختلف انحاء أوروبا ، قبل عصر يكون

وبعده، فقد وجب أن نشير الى الموقف الأوروبي المسيحي - العام من العلم
الآرسطي قبل أن نتطرق لفلسفة (بيكون) باعتبار أن جهد هذا الاخير مندرج
ضمن ذلك الموقف العام ومن ثمة فهو متأثر به ومؤثر فيه.

الموقف الأوروبي - المسيحي من التراث الآرسطي الى غاية عصر بيكون:

عند ما نقل التراث الارسطي الى العالم المسيحي في العصور الوسطى
قوبل بالرفض من طرف السلطات الكنسية. إذ رأت هذه الاخيرة في كتب
(ارسطو) خطرا على الدين ، ولذلك سارعت الى اصدار قرارات التحريم " فقد
حرمت دراسة طبيعيات ارسطو وحرم عمل أي تلخيص لها. " (1) من طرف
مجمع باريس سنة 1210 ، واستمرت قرارات التحريم في الصدور ، فصدر قرار
(غريغوريوس التاسع) سنة 1231 ثم صدر قرار (أنوسنت الرابع) سنة 1262 ،
ولكن مؤلفات أرسطو استمرت في غزو جامعات أو روبا والاعجاب بها ما
فتىء يزداد "حتى نرى أنه في سنة 1366 قد اصبح مفروضا على الطلاب الذين

(1) - د. عبد الرحمن بدوي : فلسفة العصور الوسطى - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - (1962)
ص : 91 .

يريدون الحصول على اجازة اللسانس في الآداب أن يعرفوا مؤلفات أرسطو الطبيعية" (1).

وإذا كان الموقف العقائدى المسيحى من التراث الأرسطى قد تغير وصار العلم الارسطى مقبولا ، بل مطلوبا ، فذلك إنما حدث بعد عملية المزج العجيبة بين العقيدة المسيحية والفلسفة الارسطية التي قام بها كل من (ألبرت الكبير) (ت: 1280) و (توما الأكويني) (1225 - 1274) وبقية اتباع القديس (دومنيك) (ت : 1222). وقد أدى هذا المزج الى تجذر الفلسفة الارسطية في المجتمع المسيحى - الأوروبي وتحولها الى عقيدة متصلبة ، "وسنجد منذ ذلك التاريخ" ، أي منذ القرن الثالث عشر أن الارسطالية والمسيحية ستمسيان جنبا الى جنب ، وبفضل ما للعقيدة المسيحية من ثبات وتصلب في صيغ ثابتة ، ستحضى الارسطالية بمثل هذا التصلب حتى تصبح خصوصا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر عقيدة لا تكاد تنفصل عن العقيدة المسيحية " (2) الى درجة صار فيها نقد الفلسفة الارسطية يعني اعلان العداء للدين المسيحى ، وتلك مثلا هي التهمة التي وجهتها السلطات الكنسية الى (بياردي لا رمي) (1515 - 1572) عند ما نشر كتابه "في الأخطاء الارسطو طالية" سنة 1543 .

(1) نفس المرجع والصفحة نفسها.

(2) نفس المرجع ص 129

ولكن في الوقت الذي كانت فيه الفلسفة الارسطية تمارس تأثيرها وفرضها لنفسها على عقول الناس ، كانت الثورة عليها وإلا انتقاض على القديم تشن من حين لآخر ، ومع ازدياد هيمنة الارسطية كان النقد والانتقاد لها يزداد ويتوسع ، وقد صدر هذا النقد من جهات ثلاث :

أولاً : من تيار "النزعة العلمية" الذي بدأ في مدرسة (شارتر) ثم تركز في (أكسفورد) بانكلترا بداية من القرن الثالث عشر" لان اكسفورد قد ظلت بعيدة عن التيار اللاهوتي السائد في باريس وبالتالي في أن تأخذ من ارسطو ما تشاء ، فعنيت خصوصا بالناحية الطبيعية في ارسطو ، واهتمت بوجه خاص بتطور العلوم عند العرب " (1) وقد اشتهر من هذه المدرسة ثلاثة رجال هم : (روبرت كروستيس : R. GROSSETESTE) (ت . 1253) الذي عرف بمذهبه في النور وقد أقامه على اساس الافلاطونية المحدثة وعلم المناظر كما نماء علماء العرب (2) ثم تلميذه (روجريكون R.BACON) (و1215) صاحب الاسفار : الكبير والصغير والثالث (Opus Majus و Opus Minus و Opus Tertium) والذي نحت مصطلح العلم التجريبي (SCIENTIA EXPERIMENTALIS) لأول مرة . ثم (وليم الأوكامي - O.D'OCCAM) (1300 - 1350) الذي يعتبر أعظم رجال

(1) - نفس المرجع - ص 166

(2) - نفس المرجع والصفحة

مدرسة اسكفورد وابلغهم تأثيرا ، وقد بلغت النزعة الاسمية (NOMINALISME) على يديه قمته ، اذا استطاع " أن يصل الى ايجاد مذهب في المعرفة عميق يكاد أن يكون أكبر محاولة من أجل تحليل مضمون عملية الفكر قامت في القرون الوسطى " (1).

ثانيا : صدر هذا النقد ابتداء من النصف الثاني من القرن الخامس عشر من طرف مجموعة من العلماء مثل : (ليوناردو دافنشي) (1452 - 1519) الفنان والعالم الايطالي المبرز الذي "تناول علم الميكانيك حيث تركه أرخميدس ، ونهج فيه نهجه ، فوصل الى نتائج تختلف عما كان وصل اليه الاسميون الباريسيون في القرن السابق ... [وقد] كان مقتنعا بأن العلم ابن التجربة ، وأن النظريات التي لا تلقى تأييدا من التجربة نظريات باطلة" (2) ثم (نيقولا كوبرنيك) (1473 - 1543) عالم الفلك الايطالي الذي كرس حياته العلمية لنقد تصور أرسطو وبطليموس للعالم وقد ضمنه كتابه " في الحركات السماوية. " ثم (لويس فيفيس) (1492 - 1540) عالم النفس الاسباني الذي "كان من القائلين بوجوب اتخاذ التجربة اساسا للمعرفة ، وقد طبق هذا القول في كتاب له " في النفس والحياة " (1538) ... وقد كان له أثر قوي للغاية على النظريات النفسية في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وديكارت يدين له بالشىء الكثير

(1) نفس المرجع - ص 182

(2) يوسف كرم - تاريخ الفلسفة الحديثة - ص 17

ويذكره في غير ما موضع ."(1) وكذلك (تيخوبراهي) وتلميذه (جان كبلر) (1571 - 1630) الذي كان شغوفا بالرياضيات " وكان يرى فيها أكمل العلوم ، ويرى وجوب اتباع منهجها في كل علم ، لأن الروح الالهي يتجلى بالنظام والقانون ، ولأن العقل الانساني يدرك النسب الكمية بأوضح مما يدرك أي شيء آخر ، ولا يصل الى اليقين التام الا باعتبار الوجهة الكمية." (2) وقد ايد نظرية (كوبرنيك) وكشف قانون حركة الكواكب ، واكد أن مدارتها اهليلجية وليست دائرية كما كان شائعا ، وبذلك شكك في كون الدائرة هي أكمل الاشكال الهندسية كما جاء في طبيعيات أرسطو . وقد دون تلك الاراء في كتبه : "علم الفلك الجديد" (1609) "وموجز علم الفلك الكوبرنيكي" (1618) "وأنظمة الكون" ثم (غاليليو) (1564 - 1642) عالم الفلك الايطالي الذي تبنى نظرية (كوبرنيك) ضد (أرسطو) وتحيز لها نهائيا في كتابه : "رسول من النجوم" (1609) بعد ان استعمل المنظار (= التلسكوب) و"دعا اتباع أرسطو الى النظر بالتلسكوب ، ويذكر أن ملا نكتون الزعيم البروتستانتى وكريمويني استاذ بادوقا ، رفضا هذه الدعوة غيرة منهما على مذهب أرسطو." (3)

(1) نفس المرجع ص 18 - 19

(2) نفس المرجع - ص 19

(3) نفس المرجع ص 20

ثالثا : صدر نقد التراث الارسطي أيضا من طرف مجموعة من الفلاسفة المستقلين " في مختلف أنحاء أوروبا مثل (سيزردي لا رمي) المعروف باسم (بتروس راموس) (1515 - 1572) الفرنسي الذي تدل عناوين كتبه على مقته لارسطو . ككتاب " في أن كل ما قاله ارسطو فهو وهم " (1536) وكتاب " في الاخطاء الارسطو طالية " (1543). ومثل (برناردينو تيليزيو) (1508 - 1588) الايطالي مؤسس " أكاديمياتيليزيا" وصاحب كتاب " في طبيعة الاشياء " (1569) و (جيوردانو برونو) (1548 - 1600) الفيلسوف والعالم الايطالي المتنقل الذي درّس في جامعات (جنيف : 1579) و (باريس 1581) و (اكسفورد 1583) والذي "هاجم مذهب ارسطو ودافع عن الفلك الجديد وعن حرية الفكر وكان دائم الحملة على آرسطو " (1) واشهر كتبه : "في العلة والمبدأ الواحد" (1584) و"في العالم اللامتناهي وفي العالم " (1574) و"في المونادا أو العدد والشكل " (1591). وكذلك (تومازو كمبانيلا) (1568 - 1639) الايطالي ايضا الذي خلف الاعمال التالية : "دلالة الاشياء والسحر" (1604) و"دفاع عن غاليليو " (1622) و"في الفلسفة العامة او الميتافيزيقا " (1638). (2)

(1) نفس المرجع - ص : 33 .

(2) نفس المرجع ص : 37 .

والمهتم بتطور الموقف المسيحي - الاوربي من العلم القديم يجد أنه كان رافضا له في مرتين : الاولى بعد أن تم نقل ذلك التراث مباشرة ، وقد كان الرفض عقائديا نابعا من غيرة على الدين المسيحي، والثانية بعد أن تم هضم وتمثل ذلك التراث ، وقد جاء الرفض هذه المرة رفضا علميا مؤسسا وهادفا الى التحرر من سيطرة ذلك التراث من جهة وابداع ما يمكن أن يكون بديلا له من جهة أخرى ، وهذا الموقف الأخير هو الذي يعتد به المهتم بتاريخ الفكر البشري سواء كان علميا او فلسفيا.

ومن جهة أخرى فان المتأمل في محتوى هذا "الرفض - النقد" في مجمله يجد أنه كان شاملا ومتنوعا ومستمرا عبر القرون. وهذا يدل على مدى قوة ذلك التراث وتجذره في الوسط المسيحي- الاوربي ثم أن اصحاب ذلك "الرفض - النقد" يكادون - على اختلاف تياراتهم - يجمعون على امرين هما : تأكيد دور التجربة واهمية العلم المستند اليها من جهة ، والاهتمام بالطبيعة كموضوع ، ومحاولة شق رؤى جديدة لها غير تلك التي ظل العلم القديم يشيعها من جهة أخرى.

وإذا عدنا الى مجهود (بيكون) النقدي للتراث الارسطي، وأردنا أن نصنفه الى احد هذه التيارات (ان صح لنا اعتبار الجهات التي صدر منها ذلك النقد تيارات) قلنا انه يندرج في "التيار العلمي" الممتد عن النزعة الاسمية

والمركز لها. ولكن هذا لا يعني انه لا يمت بصلة الى التيارين الاخرين ، فجهد (بيكون) النقدي يتقاطع مع جهد "تيار العلماء" في تأكيد دور التجربة ، ويلتقى مع تيار " الفلاسفة المستقلين " في البحث عن فلسفة للطبيعة تتجاوز طبيعيات ارسطو . وهذا الذي سيؤدي به الى الخوض في مسائل المنطق التجريبي ثم تاسيسه لفلسفة خاصة.

فلسفة الطبيعة : أهميتها ومكانتها

لقد ميز (بيكون) بين الفلسفة الطبيعية (La philosophie naturel) والعلوم الجزئية (Sciences particulières) ومنح الفلسفة الطبيعية مكانة خاصة ، اذ اعتبرها الأم الكبرى (= الجدة) للعلوم الجزئية ، وربط التقدم في هذه العلوم بنوع العلاقة التي تقيمها مع الفلسفة الطبيعية . فعلم الفلك والبصريات والموسيقى والقسم الأكبر من الفنون الميكانيكية وحتى الطب والفلسفة الخلقية والمدنية والعلوم المنطقية (= وهي كل العلوم المعروفة في عصره) بقيت آراؤها سطحية ولم تبلغ حقيقة الأشياء لانها انفصلت عن الفلسفة التي كانت تمدّها بالغذاء ، وهي لن تستطيع أن تتطور برايه الا اذا ارتبطت بالفلسفة الطبيعية مرة اخرى (1).

(1) F. Bacon: novum organum - P-U-F Paris (1986) LIV : 1 , Apho 8 , p:140 - 141.

واذا كان تطور العلوم الجزئية متوقف على مدى ارتباطها بالفلسفة الطبيعية ، فان هذه الاخيرة قد ظلت مهمشة او مستغني عنها في جل الحقب التي عرفت فيها المعرفة البشرية تطورا ملحوظا وهي ثلاثة فقط براي (يكون) الاولى عند اليونان والثانية عند الرومان والثالثة في بلاد أوروبا الغربية . وقد استغرقت كل واحدة ما يناهز القرنين من الزمان وهذا قليل براي (يكون) ومؤسف لان الذاكرة البشرية تمتد بحسبه الى خمس وعشرين قرنا خلت. (1)

فاذا كان من المجحف في حق المعرفة البشرية عموما أن تستغرق ستة قرون من خمس وعشرين قرنا ، فان المؤسف حقا ان تظل فلسفة الطبيعة في تلك الفترة الزمنية القليلة وفي كل حقبة منها مهمشة ، ويظل العقل البشرى مشدودا الى شيء آخر غير الفلسفة الطبيعية . وهذا ما وقع بالفعل لتلك الفلسفة في كل مرة تنهض فيها المعرفة البشرية . ففي الحقبة الأوروبية الغربية طالما بقيت العقول النيرة مآخوذة من قبل اللاهوت كما كانت تلك العقول في الحقبة الرومانية مشدودة الى فلسفة الاخلاق ، بل وحتى في الفترة التي بدى فيها تالق تلك الفلسفة وهي الفترة اليونانية والتي كانت قصيرة ومحدودة للغاية فان الفلسفة الطبيعية لم تسلم من منافسة فلسفة الأخلاق لها. " ففد اهتم الحكماء

(1) I BID , LIV 1 . Apho 78 ,p: 138. 139

السبعة كما يعرفون جميعا في الأزمنة القديمة (ماعدا طاليس) بفلسفة الأخلاق والشؤون العامة ، وفي الأزمنة اللاحقة بعد أن أنزل سقراط الفلسفة من السماء الى الارض ، فان فلسفة الأخلاق أخذت المكانة وحرفت الأذهان عن الفلسفة الطبيعية. " (1) والنتيجة العامة ألا نندهش اذا لم يتقدم الناس في مضمار العلوم الجزئية طالما بقوا منهمكين في غير الفلسفة الطبيعية. (2)

الفلسفة اليونانية والفلسفة الطبيعية

وإذا كانت الفلسفة الطبيعية قد عرفت فترة تألقها في الحقبة اليونانية وكانت "العلوم التي نحوز عليها نحن هي بكيفية عامة منحدره من اليونان ، وما اضافه المؤلفون الرومان والعرب ومن بعدهم ، فهو غير معتبر ولا ذو أهمية كبيرة، وهو يستند الى القواعد المبتكرة من طرف اليونان مهما كانت إضافته،" (3) فقد وجب على (بيكون) أن يعطى رؤية أوضح عن الحقبة التي ازدهر فيها هذا العلم وأن يصدر مواقف صريحة بصددها الفيلسوف أو ذاك أو هذه الفئة من الفلاسفة أو تلك.

(1) I. BID , LIV1, Ahpo 79, P: 140.

(2) I DEM.

(3) IBID , LIV1, Apho 71, P: 132- 133.

نشير في البداية الى أن (بيكون) لا يشيد باليونان فقط لأن العلم المنحدر الى أوروبا هو علمهم ، وانما يشيد بهم من خلال حكمتهم التي بدت له أنها "حكمة أساتذة" (Une sagesse de professeurs) ، وهذا يعني أنه يقف موقف الإكبار من كل الفلاسفة اليونان دون استثناء !

واذا كان يبدو أن ذلك الاكبار سينال بالدرجة الأولى ابرز الفلاسفة اليونان وعلى رأسهم جميعا آرسطو وافلاطون ، فان الأمر على خلاف ذلك بالنسبة لمن يشيد بفلسفة الطبيعية ويدعوا الى الاهتمام بها باعتبار ذلك اساس تطور العلوم الجزئية.

فقد عودنا أغلب مؤرخي الفلسفة اليونانية على تقسيمها الى مراحل ثلاث : مرحلة ما قبل سقراط وتشمل الفلاسفة الطبيعيين و السوفسطائيين الذين مهدوا لظهور سقراط. ثم مرحلة سقراط وافلاطون وارسطو وهي التي ازدهرت فيها تلك الفلسفة وبلغت مرحلة الأوج. ثم مرحلة ما بعد آرسطو وتشمل الشكاك والرواقيين والايقوريين وقد انحدرت فيها تلك الفلسفة . ولكن (بيكون) لا يوافق على هذا التقسيم الثلاثي ، بل يرى أن تلك الفلسفة قد مرت بمرحتين فقط : احدهما تضم السوفسطائيين (كجورجياس) و (بروتاغوراس) و(هيباس) و (بولوس) وكذلك (افلاطون) و(ارسطو) و (زينون) و(أبيقور) و(ثيوفراستس) ولا حقيهم (كريسيب) و (كرنيادس)

وغيرهم. ورغم ان (بيكون) يقر بوجود فرق بين السوفسطائيين ومن جاء بعدهم الا انه يعتبره فرقا شكليا لان "هؤلاء وأولئك ... قد اختزلوا مادة الاشياء الى مجادلات وأسسو نحلا وأنساقا فلسفية ودافعوا عنها." (1)

وثانيهما هي مرحلة أقدم الفلاسفة اليونان (كأناباذو قليدس) و(أنكسا غوراس) و(لوسيوس) و(ديمقريطس) و(برمنيدس) و(هيرقليطس) و(أكزينو فان) و(فيلالوس) وغيرهم ، وهوبهمل (فيشاغورس) لاجل تطيره ، أي عموما من نسميهم الفلاسفة الطبيعيين الذين " لم يفتحوا مدرسة ... ولكنهم انخرطوا في البحث عن الحقيقة برزانة ووقار كبيرين وبتواضع ، أي باقل ما يمكن من الانفعال والتفاخر." (2)

واذا كان الذين اسسوا مدارس قد دافعوا على انساقهم الفلسفية التي لم يجد (بيكون) أحسن وصف لها من عبارة (دنيس - Denys) التي تقول أنها "خطابات شيوخ بطالين الى شباب جهال " فان الذين لم يؤسسوا مدرسة قد نجحوا أفضل من غيرهم . " (3) واذا كانت أعمال الناجحين من اليونان براي (بيكون) قد طمست ولم تعد تظهر الى جانب اعمال غيرهم من بني جلدتهم

(1) IDEM.

(2) IDEM.

(3) IDEM

فذلك انما يعود عند (بيكون) الى الزمن النكد الذي يصفه صاحب الاروغانون
الجديد بالنهر الذي "أوصل الينا ما هو اكثر خفة وماهو منفوخ بالهواء ،
واغرق في باطنه ما هو اكثر ثقلا ومتانة." (1)

وإذا كانت آراء غير الطبيعيين من الفلاسفة اليونان قد انتشرت وغطت
على أعمال الطبيعيين منهم فذلك لا يعود براي (بيكون) الى قوتها وعمقها وانما
يرجع الى "انسجامها وتوافقها أكثر مع عواطف العامة"، (2) هؤلاء الذين
تأسس مواقفهم على التقليد أكثر مما تناسس على حرية الرأي النابع من البت
والتداول في الامور . وهم لذلك مخطئون عند ما جعلوا فلسفة أرسطو "موضع
رضى عام وبدون تحفظ" وعند ما ذهبوا الى أن "ظهورها قد أدى الى ضعف
وتحلل الفلسفات السابقة و[أنه] ... لم يتم ابداع أي شيء افضل منها بحيث
تبدو تلك الفلسفة راسية وثابتة بقوة وأنها قد جذبت اليها الماضي
والحاضر." (3)

ففضلا عن فساد الاعتقاد بتحلل الفلسفات السابقة على فلسفة أرسطو
(= الفلسفة الطبيعية) ، فان أغلب المنبهرين بفلسفة المعلم الأول لم يصدرُوا ذلك
الحكم بحقه الا انطلاقا من أحكامهم المسبقة ووقعهم تحت وصاية الآخرين .

(1) IBID, LIV1, APHO 77, P: 137.

(2) I DEM

(3) IDEM

ولذلك يصف (بيكون) موقفهم بأنه "يدل على طبيعة لينة وقطيعية (grégaire) أكثر مما يدل على رضى عام." (1)

والحقيقة ان اراء الفلاسفة الطبيعيين في نظر (بيكون) "بقيت محفوظة بعد ذلك [= أي بعد شيوع فلسفة أرسطو] لمدة حتى عهد شيشرون (Cicéron) وبعد ان أغرق البرابرة الجرمان الامبراطورية الرومانية وعانت المعرفة البشرية من شبه غرق [هي الاخرى] انشد فقط كانت فلسفات أفلاطون وأرسطو باعتبارها طبقات من مادة أكثر خفة واقل صلابة تحوز على الوقاية في خضم أمواج الزمن." (2)

وهكذا يظهر انخياز (بيكون) الصارخ لمن أسماهم الفلاسفة اليونان القدماء ويتجلى رفضه للأنساق الفلسفية لمن اشتهروا عبر العصور على أنهم كبار الفلاسفة اليونان كأفلاطون وأرسطو ، أو بعبارة أصح فلاسفة اليونان غير المنازعين وهو لا يكتفي بتخفيض القيمة التي منحها الراي العام لفلسفات افلاطون وأرسطو باعلاء شأن الفلسفة الطبيعية السابقة لفلسفاتهما ، بل اصدر بحقهما أو صافا تجعل القارئ لنصوصه يظن أن تلك الفلسفات ليست لها أية قيمة وأن جهود اصحابها ذهبت ادراج الرياح [= وصف جهد افلاطون

(1) IDEM

(2) IDEM

وأكاديميته بأنها لم تقم الا بإدخال المعرفة الظنية الى مجال الفلسفة (L'ACATALEPSIE (1) كما وصف فلسفة أرسطو العقلية بأنها فلسفة سوفسطائية (2)]. ولكن هذه النعوت لا تضر تلك الفلسفات شيئا بقدرما يضرها الرأي المستند الى الحجج الكافية.

أرسطو والفلسفة الطبيعية

إذا كان (بيكون) يتأسف على قصر المدة التي ازدهرت فيها الفلسفة الطبيعية في الحقبة اليونانية وينحو باللائمة على الفلسفات النسقية التي جاءت بعدها ، والتي وصفها بأنها فلسفات مدارس ، فان لوم (بيكون) بل سخطه قد انصب على "فلسفة الليسسية" (فلسفة الثانوية) المشائية (Peripatétienne) دون "فلسفة الاكاديمية" وهذا طبعي لان فلسفة المعلم الأول عموما وفلسفته الطبيعية خصوصا هي التي ظلت مسيطرة على الأذهان الى غاية عصر (بيكون). وإذا كانت هيمنة الفلسفة المشائية على الاذهان ثابتة عبر العصور فان رؤية (بيكون) التاريخية النقدية للفلسفة اليونانية مهما كان غرض صاحبها لا تكتمل الا بتعرضه لفلسفة أرسطو الطبيعية سواء من جهة محتواها أو منهجها ، ومن هنا فقط سيأتي التجديد في فلسفة (بيكون).

يرى (بيكون) أن أرسطو قد أفسد الفلسفة الطبيعية بجدله عند ما اصطنع العالم انطلاقا من المقولات ، وعند ما حمل على النفس (أكثر الجواهر نبلا) نوعا مستمدا من مفاهيم الغاية الثانية و[عند ما] حل الاشكال المتعلق بالكثيف والنادر.... بتمييزه العقيم بين القوة والفعل... وآراء أخرى متعارضة كلياً مع طبيعة الاشياء ."(1)

وعند ما قارن محتوى فيزياء أرسطو مع ما بقي من آراء الطبيعيين القدامى عن الذرة والأجسام وعن النار والماء والهواء... الخ وجد أن "فيزياء أرسطو ، لم يبق لها من أثر الا مفاهيم الجدل " ، (2) والأدهى من ذلك خضوعها لميتافيزياء صاحبها الذي تناولها هناك " تحت عنوان جد بهيج وبطريقة [الفيلسوف] الواقعي لا [الفيلسوف] الاسمي." (3)

واذا كان يبدو من هذا أن فلسفة أرسطو الطبيعية قد أخفقت فالسبب يعود برأي (بيكون) الى زهده في التجربة . والقارئ لكتب المعلم الاول الطبيعية او لبعضها ككتاب "الحيوان" وكتاب "المسائل الحيلية (الآليات) قد يلتمس استخدامه للتجربة الا أن (بيكون) يحذره من هذا الاستنتاج ، لأن أرسطو في طبيعياته كلها لم يكن يستنتج المبادئ من التجربة وانما كان يفترضها

(1) I BID , LIV1, APHO 63 p: 123.

(2) IBID ,LIV1 APHO 63,P: 123- 124.

(3) I DEM

مسبقا ثم يقوم بتأكيدهما عن طريق التجربة ولذلك يرى (بيكون) أنه "خدع التجربة ، وثناها وابقى عليها اسيرة في حقائقه اليقينية ، ولهذا السبب ولهذا بالخصوص فانه يستحق اللوم اكثر من اتباعه المحدثين [= يقصد الفلاسفة السكولائيين] الذين تخلوا كليا عن التجربة." (1)

ان التدقيق في هذه الملاحظات النقدية التي ابداهـا (بيكون) يقتضي عدة أمور منها تحديد معاني المقولات ورؤية أرسطو الى الاشياء انطلاقا منها ، ومنها تحديد مفاهيم الواقعي (Réaliste) والاسمي (Nominalist) والفرق بينهما ومنها ضبط معنى التجربة الذي قصده (بيكون) وما إذا كان أرسطو قد استخدمه ام لا... الخ الا أننا لا نريد ان نخوض في هذا لاننا نعتقد ان انتقادات (بيكون) لطبيعات أرسطو التي صار بها من المجددين لا تتمثل في هذه الملاحظات النقدية على اهميتها خصوصا ما تعلق بالتجربة ، وانما تكمن في نقد الأداة التي استعملها المعلم الأول في طبيعياته ونقص ذلك منطقة العقلي.

من نقد طبيعيات أرسطو الى نقد منطقة

لاحظ (بيكون) أن أرسطو قد "أخضع كليا فلسفته الطبيعية لمنطقة الى حد أنه جعلها تقريبا عديمة الفائدة ومحل نزاع،" (2) والمنطق الصوري عموما

(1) IDEM

(2) IBID, LIV1, APHO 54, P: 117

برأيه اذا كان يصلح لضبط وتقرير الأخطاء بين الكلمات فهو غير صالح للبحث عن الحقيقة و لا لابداع علوم جديدة ومن ثمة يكون ضرره على المعرفة اكبر من نفعه(1).

وعند ما تأمل (بيكون) المفاهيم المستخدمة في المنطق والفيزياء الارسطيين كالوجود والجوهر والنوع والفاعل والمنفعل وغيرها لا حظ أنها مفاهيم مجردة ، وهي بالرغم من انها محددة بدقة ليس لها أية قيمة، وبما أنه يهتم بالاشياء فقد فضل عليها جملة من المفاهيم المحسوسة رغم أن تحديدها غير مكتمل كالثقل والخفيف ، والكتيف والمتخلخل ، والرطب والجاف ، والتخلق والفساد ، والانجذاب والتنافر ، والعنصر ، والمادة والصورة (كما يفهمها هو) ...الخ وهي كلها تتعلق بالظواهر الطبيعية لا الذهنية (2).

والمتبع لاراء (بيكون) النقدية عن المنطق الارسطي يجد أنها تتركز حول محورين اساسيين ما يتعلق بالمقاهيم وما يخص المنهج وفيما يلي نتناول كل محور على حدى.

العلة والصورة: لقد ذهب المعلم الأول الى ان العلم بالشيء لا يحصل الا بادراك ماهيته وماهية الشيء عنده هي صورته لا مادته . كما ذهب الى نفي العلم اذا

(1) IBID , LIV1 APHO 11, p: 102 : 103

(2) IBID , LIV1 APHO 15 :P 104)

لم يكن علما بالعلة فقال : "قد يظن بنا أنا نعرف كل واحد من الأمور على الإطلاق لا على طريق السوفسطائيين الذي هو بطريق العرض ، متى ظن انا قد تعرفنا العلة التي من أجلها الأمر وأنها هي العلة ، وانه لا يمكن أن يكون الامر على جهة أخرى ، ومن البين أن هذا هو أن يعلم." (1)

واذا كانت العلة عنده منقسمة الى اربعة أنواع : مادية وصورية وفاعلية وغائية ، فان العلة الغائية هي التي يجب ان نطلبها لان الغاية تؤدي الى الصورة والصورة هي التي تحدد ماهية الشيء ، قال أرسطو: "قد يظهر اذن أن الضروري في الأمور الطبيعية انما هو ما يقال على معنى الهیولی وحركاتها وقد يجب على صاحب الطبيعة ان يقصد الشئین معا . غير انه ينبغي له ان يكون اكبر قصده (السبب الذي من أجله) لان هذا سبب الهیولی وليست هي سبب الغاية أعني التي من أجلها." (2)

وقد قبل ييكون المفهوم الارسطي للعلة الذي كان شائعا في عصره ،

(1) أرسطو منطق أرسطو - نشرة د. عبد الرحمن بدوي ، مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة (1948)

ص : 71

(2) أرسطو : الطبيعة - ترجمة حنين بن اسحاق وتحقيق عبد الرحمن بدوي الدار القومية للطباعة

والنشر . القاهرة (1964) المقالة الثانية - ص 163

الأنه استبعد أن تكون العلة الغائية هي هدف العلم الذي يدعوا اليه هو (= العلم التجريبي) الا اذا كان الأمر يتعلق بافعال الانسان وأما العلتان الفاعلية والمادية فقد اعتبرهما تافهتان وسطحيتان ولا تعودان بشيء على العلم الحقيقي والفعال " (1) فلم يبق (يكون) من علل ارسطو لعلمه الا العلة الصورية.

والحقيقة أن (يكون) الذي ثار على مفاهيم المنطق الارسطي ورفضها ، قد أحتفظ منها بمفهوم الصورة (FORME) ولكنه عني به شيئاً آخر غير ذلك الذي قصده المعلم الأول ، فاذا كان هذا الاخير قد جعل الصورة في مقابل المادة واعتبرها غاية لها ، فان الصورة عند (يكون) تتمثل في " القانون" الذي بحسبه تفعل الأشياء افعالها الخاصة. قال (يكون) : " بالنسبة للطبيعة لا شيء يوجد فعلا الا الأجسام منفردة تفعل افعالا فردية خالصة وفق قانون ، وفي المعرفة يعتبر هذا القانون نفسه من حيث البحث عنه واختراعه وتفسيره هو الاساس سواء بالنسبة للعلم أو الاختراع . وما دامت هذه الكلمة [= صورة] تطرح وتستعمل باستمرار ، فما سنفهمه منذ الان تحت اسم صورة هو هذا القانون ومادة. " (1)

(1) F Ba con ; N ovun organum , Liv2 Apho 2. p: 187

(2) IBED , Liv 2 Apho 2, p: 187.

والصورة عند (يكون) ملازمة للطبيعة تحضر عند حضورها وتغيب بغيابها ، ومادام الأمر كذلك فإن "الصورة الحقيقية هي تلك التي تستمد الطبيعة المعطاة انطلاقا من مصدر ماهية ملازم لعدد كبير من الطبائع [= القانون] وهو المصدر الذي يعرف بالطبيعة اكثر مما يعرف بالصورة نفسها." (1)

واذا كان طالب العلل الفاعلية والمادية للأشياء يستطيع أن يحقق اختراعات جديدة من مواد جد متماثلة ومختارة دون أن يتجولز ذاك الى تخوم الأشياء الراسخة بعمق ، فإن من يحصل العلة الصورية حسب (يكون) يتمكن من "احتضان وحدة الطبيعة في مواد جد مختلفة ولهذا يستطيع أن يفك ويسلط الضوء على اشياء لم تصنع بعد ، والتي لا الطبيعة بتغيراتها ولا الصناعة بتجاربها ولا الحظ نفسه يمكن أن ياتي بها الى الفعل ، وهي ايضا ما لم يحلم به العقل البشري ابدا." (2)

ولكن (يكون) الذي حدد مفهوم الصورة ذلك التحديد المخالف لما فهمه المعلم الأول منها ، قد اتفق معه على ادراجها كمبحث فلسفي ضمن الميتافيزيقا ، لان الصورة باعتبارها قانونا تتميز بالثبات وهي لذلك خالدة وكل

(1) I BID, LIV 2 APHO 4 P: 189

(1) I BID, LIV 2 APHO3 P: 187. 188

ماهو خالد مندرج حتما ضمن الميتافيزيقا ، عكس ما يتعلق بالسياق العادي للطبيعة المتغيرة الذي يتحدد بتحدد العلة المادية والفاعلية ومن ثمة فهو من مهام الفيزيقا التي رأى (يكون) أن يضم الميكانيكا اليها كما رأى ضم السحر الى الميتافيزيقا. (1)

القياس والاستقراء :

إذا كان المنهج الذي اعتمده المنطق الأرسطي لتوليد النتائج من المقدمات هو "القياس المؤتلف اليقيني" على حد تعبير المعلم الأول ، فهذا المنهج في نظر بيكون غير صالح لاستنباط مبادئ العلوم التي تجعل موضوعها الأشياء ، فهو يتمكن فقط من الربط بين الآراء (= ماهو مجرد) ولا يستطيع ابدا أن يربط بين الأشياء (= ماهو ملموس)، (2) وإذا كانت بنيه أي قياس تتألف من قضايا والقضايا من حدود والحدود عبارة عن علامات للمفاهيم ، وإذا كانت المفاهيم في حد ذاتها خاطئة وقد تم تجريدها عن الأشياء بكيفية اعتباطية ، فاننا لن نجد شيئا يعتد به في البناء الذي نؤسسه على تلك المفاهيم (=القياس) ولهذا لا يجد

(1) I BID, LIV 2 APHO9 P: 194

(2) I BID. LIV 1 APHO113 P: 103

(يكون) من أمل في المعرفة الثابتة الصحيحة إلا في الاستقراء الحقيقي
(L'INDUCTION VRAIE) (1).

لقد أقر أرسطو الاستقراء كمنهج للمعرفة وإن كان الاستقراء أقل قيمة
عنده من القياس . وقد ميز بين نوعين من الاستقراء : تام وناقص ، ولم يثق الآ
بالاستقراء التام لأنه يفيد اليقين لا الظن . ومهما يكن فإن استقراء أرسطو
بنوعية سواء وثق به أو لم يثق يقوم برأي (يكون) على التعداد البسيط
(Induction par simple énumération) وهذا النوع من الاستقراء يصفه (يكون) بأنه
"صبياني وسخيف" فضلا عن استخراج مستعملة للنتائج "من الوقائع الآنية
وهي قليلة وغير كافية ولذلك فهو معرض لخطر الحجة العارضة المتناقضة." (2)
وأما الاستقراء الذي يفيد العلوم والفنون في عملية الاستنتاج فهو الذي
"يح أن يأخذ بعين الاعتبار التمييز في الطبيعة بواسطة حالات الأطراح
والاستثناءات اللازمة ، ثم يستدل على الحالات الإيجابية بعد عدد كاف من
السلوب." (3)

(1) IBID , Liv1 AHPO 114, p: 104.

(2) IBID, LIV2, Apho 105 p:162.

(3) IDEM

فاذا كان هدف العلم هو تحديد العلة التي تتمثل في الصورة براي (يكون) وكانت صور الاشياء ملازمة لطبائعها، تحضر بحضورها وتغيب بغيابها وتزيد وتنقص بزيادتها ونقصانها ، فان وجود الصورة وتحديد لها متوقف على ذلك الترابط الذي يجب أن يضبط بحذف الصفات التي لا تدخل في وجود الطبيعة . وهذه هي وظيفة الاستقراء الحقيقي التي رأى (يكون) أنها تتم عبر ثلاث خطوات :

الاولى : تحديد قائمة بجميع الحالات التي تظهر فيها الطبيعة بغض النظر عما يصاحبها. فبالسبة لصورة "الحار" مثلا هناك اشعة الشمس (خصوصا في الصيف وفي منتصف النهار) واشعة الشمس المنعكسة على مرآة ، والشهب والصواعق المحرقة ، واللهب الطافح من أعماق الجبال والسوائل الحارة المندفعةالخ و (يكون) يسمى هذه القائمة "جدول الوجود والحضور". (1)

الثانية : تحديد قائمة تشمل جميع الحالات التي تظهر فيها الطبيعة المعنية مع الأخذ بعين الاعتبار النسبة بين هذه الحالات والحالات السابقة، "فأشعة القمر والنجوم والمذنبات لا تعطي الانطباع بالحرارة ، بل على النقيض من ذلك نلاحظ عادة ،أنواع البرودة القارسة في أوقات اكتمال القمر". (2) ولهذا يجب

(1) IBID , LIV2 , APHO 11, p:197

(2) IBID , LIV2 , APHO 11, p:197

استثناءها من القائمة . كما أن اشعة الشمس نفسها لا تنتج الحرارة فيما نسميه المنطقة المتوسطة للهواء... [لأن] هذه المنطقة ليست قريبة من جسم الشمس حيث تنبعث الأشعة ولا هي قريبة من الأرض حيث يتم التقاطها . والحجة الدامغة تتمثل في بقاء الثلوج باستمرار في قمم الجبال" (1) ولهذا وجب اسقاطها من القائمة كذلك .. و هكذا الى أن تكتمل قائمة "جدول الغياب."

الثالثة : بعد أن يكتمل جدول الحضور وجدول الغياب " يجب أن نضع مقارنة أمام الذهن للحالات التي تكون فيها الطبيعة المطلوبة بدرجة أكثر أو أقل ، سواء كنا نقارن نموها أو انحسارها في شيء واحد بعينه ، أو كانت المقارنة تجري بين مواضيع مختلفة بعضها بالنسبة للبعض الآخر " (2) ، والحقيقة اننا نبغي تحديد الصورة الحقيقية للطبيعة، وما دامت "صورة الشيء هي الشيء نفسه موجودا ، اذ لا فرق بينهما الا ما يبدو بين ظاهر وباطن أو داخل وخارج، " (3) يلزم من هذا أن الصورة لن تكون حقيقة الا إذ تناسبت مع الطبيعة من حيث الزيادة والنقصان . وهذه الخطوة تسمح لنا بوضع " جدول للدرجات " أو جدول مقارنة".

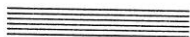
(1) IDEM

(2) IBID LIV 2 APHO 13,p:207

(3) IBID LIV 2 APHO 10,,p195

ولكن الخطوات الثلاث التي تصورها (يكون) والعمل الذي تقوم به والذي سماه "مثل الحالات أمام الذهن،" (1) لا يمثل إلا المرحلة الأولى من الاستقراء البيكوني فإذا كانت " المهمة الأولى للاستقراء الحقيقي تتمثل في اطراح واستثناء الطبائع التي لا توجد في حالة معينة حيث تكون الطبيعة المقصودة حاضرة ، او التي توجد في حالة حيث تكون الطبيعة المقصودة غائبة ، أو التي توجد متطورة في حالة تكون فيها الطبيعة في انحصارها ، أو المنحصرة في حالة حيث تكون الطبيعة في تطور، " (2) اذا كانت هذه هي المهمة الأولى للاستقراء فان المهمة الثانية له تتمثل في أنه "بعد أن يتم الحذف والالغاء كما ينبغي ، فان جميع الآراء الطيارة تتبخر ، ويبقى في القاع الصورة الايجابية الصلبة والحقيقية والمضبوطة بعناية." (3)

تقييم ونقد



اذا قارنا بين "الأورغانون الجديد" و"الأورغانون القديم" من حيث الغاية التي سعى صاحب كل منهما لتحقيقها ومن حيث الوسيلة التي اتبعها

(1) Ibid , Liv2 Apho 13, p: 207

(2) Id id , Liv 2 ,Apho 16, p: 217

(3) Ibid , Liv 2 Apho 15 , p: 216

وجدناهما مع السيد (بريهمة) (1876 - 1952) متفقان ، فالغاية هي الصورة (بغض النظر عن معناها) والوسيلة هي الاستقراء (بغض النظر عن قيمته) الا انهما برأي مؤرخ الفلسفة الفرنسي متميزان ومختلفان في امرين هما :

أولا : نجاح الأورغانون الجديد في تحديد ماهية الشيء حيث أخفق الأورغونون القديم في ذلك ، إذ جعل حد الشيء متوقف على تحصيل الجنس القريب والفصل النوعي ، وهي خواص باطنة تختفي وراء ظواهر الأشياء ويصعب ضبطها والاتفاق حولها.

ثانيا : إن الأورغانون الجديد لا يجعل من تحديد صور الاشياء اشباعا لحاجة نظرية تأملية ، بل تمهيدا للخلق والابداع. (1)

ولكن اذا كان (أرسطو) قد استعمل الاستقراء كما استعمله سيكون لتحديد ماهية الشيء فلما ذا نجح (بيكون) وأخفق أرسطو) ؟ هل يكمن نجاح (بيكون) في تركه للقياس الذي تمسك به (أرسطو) أم يعود الى استقراءه المخالف لاستقراء (أرسطو) ؟

لقد وجد (بيكون) أن الاستقراء الأرسطي يقوم على التعداد البسيط ، وهذا النوع من الاستقراء ليس الا التعبير عن الاستقراء الشائع برأي (ج.س.مل)

(1) E . Brehier , Histoire de la philosophie P.U.F Paris (1950) t2 p34

(1806 - 1873) J.S.MILL ، ولذلك فقيمة الاستقراء الارسطي لا تزيد على قيمة الاستقراء الشائع الذي ظل الناس يستخدمونه حتى قبل ان يتحدث أرسطو عن الاستقراء ويضبط معناه في تحليلاته.

والحقيقة أن الاستقراء الشائع أو "الاستقراء الطبيعي" والذي يقوم بتعميم الحكم انطلاقا من مجموعة من الحالات المتوافقة بغض النظر عن كفايتها أو عدم كفايتها وعن وجود أو عدم وجود الحالة المخالفة انما هو بحسب السيد (مل) استقراء خاص "بالعقول التي لم تتمرن على المناهج العلمية." (1)

وإذا كان التمرس بالمناهج العلمية قد اصبح حقيقة في عصر سيكون ، وكان من الضروري انسجام فلسفة الاستقراء مع تلك الحقيقة ، فقد صار من المحتم تجاوز الاستقراء الارسطي باعتباره متماهيا مع الاستقراء الشائع الى استقراء جديد يتجاوز الميل الى التعميم الى تحديد ما يضمن صحة التعميم . وتلك هي مهمة "العقول السامية" على حد تعبير (مل). (2) التي لا تنجر الى التعميم انطلاقا من تجارب متشابهة بقدر ما تبحث عن "الضمان الكافي" لصحة الرأي والذي لا يتحقق الا بتأكيد عدم وجود التجربة المخالفة ، أي أنها بدل

(1) J. S. MILL : système de logique deductive et inductive trad : L. Peisse Paris, librairie Germer baillère et Ce - 1880 - T1, P:32.

(2) Idem

أن تبحث عما يؤكد الرأي في مجموعة التجارب الموجبة كما ينص الاستقراء القائم على التعداد البسيط ، تبحث عما يؤكد في مجموعة التجارب السالبة . ومن هنا جاء تفوق الاستقراء اليبكوني الذي بدى متسعا حيث استغرق الاستقراء الآرسطي بأكمله في قائمة الحضور وتجاوزته بقائمتي الغياب والتغير النسبي.

واذا كانت قائمة التغير النسبي تأكيداً لحضور الصورة أو غيابها ، وكان غرض (يبكون) استبعاد الصفات التي لا تطابق الطبيعة المعطاة وهو ما لا تحققه قائمة الحضور لوحدها ، فان جدول الغياب يصبح علامة بارزة على تفوق ونجاح الاستقراء اليبكوني ، وهو ما أجمع عليه الدارسون لفلسفة (يبكون) كأميل بريهييه - E. BREHIER (1876-1953) وفيكتور بروشار (V. Brochard) 1907- (1848) وغيرهم. (1)

وإذا كان (يبكون) قد صار في عداد الفلاسفة بتجديده في مجال الاستقراء اذ اصبح رائد المنطق التجريبي ومؤسساً للفلسفة الاستقرائية على حد تعبير (مل) (2) وكان التجديد في الاستقراء مرتبطاً بتطور العلم التجريبي . فقد

(1) د. محمود يعقوبي : مسالك العلة وقواعد الاستقراء عند الاصولية وجون ستيوارت مل - ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر (1994) ص : 167 .

(2) j .s mill , Idid , p353.

وجب التساؤل عن مدى انسجام فلسفة صاحب "الأورغانون" الجديد مع مستوى التطورات التي عرفها العلم التجريبي في عصر يكون والعصر الذي جاء بعده وهذا هو الذي يمكننا من ادراك قيمة الفلسفة الاستقرائية لبيكون ومدى تحررها من الهيمنة الأرسطية واسهاها في التحرر منها.

وبهذا الصدد يجب أن نشير أولا الى أن الثورة على العلم القديم في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، وحتى قبل ذلك لم تكن ثورة فلاسفة فقط بل كانت بالآساس واكثر من أي شيء آخر ثورة علماء ابتداء من (كوبرنيك) الشهير وانتهاء بـ (كبلر) العظيم وهذه الثورة هي التي أدت الى القضاء المبرم على العلم القديم وتحطيم الرؤيا الارسطية للعالم. (1)

ومع الأسف ، فان داعية العلم الجديد " لم يكن مهتما بنتائج العلم الجديد" ، فقد فاتته جميع التطورات الاكثر أهمية في عصره تقريبا . فهو لم يعرف اعمال (كبلر) ، وعلى الرغم من أنه كان يتلقى العلاج على يد (هارفي) فانه لم يعرف أبحاث طيبة عن الدورة الدموية. (2)

(1) راجع رولان موسنية : تاريخ الحضارات العام - م 4 - منشورات عويدات بيروت - ص ص 257

- 269

(2) ب. راسل : حكمة الغرب ترجمة . د. فؤاد زكريا - المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب -

الكويت - ط 1 (1983) ص 62 .

وإذا كان نجاح الثورة العلمية في تقويض اسس العلم القديم قد تم باستخدام التجربة التي دعا (بيكون) الى اعتمادها فان ذلك لم يكن ليتأتى لفئة العلماء لولا اعتمادهم الكبير على العلم الرياضي، حتى أن بعضهم ذهب الى ان الطبيعة مكتوبة بلغة رياضية مما يعني انغلاق فهمها على من لا يعرف لغة الرياضة.

ولم يكن (بيكون) يعرف لغة الرياضة بل كان "جاهلا بالرياضيات وما اتخذت من شأن في تكوين العلم الطبيعي"، (1) وقد ذهب وهو يتحدث عن العوائق التي حالت دون تطور الفلسفة الطبيعية في القديم الى اعتبار الرياضة احدى تلك العوائق (2)، وربما كان منه هذا فيما يرى السيد (بريهية) لما لاحظته من اعتساف كان يقوم به معاصره (روبرت فلود) وهو يتصور الطبيعة رياضيا. (3)

واذا كان كره (بيكون) لاعتساف معاصره قد جعله ينهى عن أن تكون الرياضة منطلقا لتفسير الطبيعة، فانه لا ينفي وجود دور لها في تطور العلوم الجزئية بعد أن تكون هذه الأخيرة قد قطعت شوطاً، وهو ما أكدته في مكان

(1) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الحديثة . دار القلم - بيروت ص : 45

(1) F. Bacon , Ibid , Liv1 , Apho 96, P:157.

(3) E. Brehier - Ibid , P34.

آخر من جوامعه فقال " : ان البحوث حول الطبيعة تكتسب افضل النتائج عند ماتكون الرياضة غاية الفيزيقا. " (1) وإذا كان قول بيكون هذا يعني شيئا فهو بحسب السيد(لالاند)(A.Lalande (1963-1867) أن الرياضة هي التي تعطى للعلم تحديده وكماله النهائي ، وتمنحه صورته الأكثر شمولاً. (2)

ومهما يكن فان (بيكون) " لم يبد تقديرا كبيرا للمناهج الرياضية التي كانت قد بدأت تتطور في عصره " (3)، وإذا كانت تلك المناهج تركز على دور الاستنباط في البحث العلمي ، فان (بيكون) لم يجعل للاستنباط دورا يذكر لانه نفى القياس مسبقا . وهذا ما سيجعل للاستقراء فيما لاحظ (ب. راسل) (1872-1970) B.RUSSELL دورا سطحيا في البحث العلمي. (4)

ثم ان الاستقراء كما تصوره (بيكون) والذي هو من دون شك جوهر "الأورغانون الجديد" يجعل هذا الاخير يفشل في تجاوزه أورغانون (ارسطو) لأنه عموما "يعتمد على التصنيف وحده ، وعلى الفكرة القائلة أن مراعاة التدقيق اللازم كفيلة بايجاد الفئة او المكان المناسب لكل شيء ، وتبعاً لهذا الرأي فاننا ما

(1) F.Bacn , Idid , Liv 2 , Ahpo 8 , P: 194.

(2) A.Lalande. Les théories de l'induction et de l'expérimentation Boivin et Cie, éditeurs, Paris (1929) P. 73

(3) - ب - راسل : مرجع سابق ، ص : 61

(4) نفس المرجع والصفحة.

أن نهتدي الى المكان الصحيح ، ومع الاسم الملائم لاية كيفية او صفة محددة حتى نكون قد سيطرنا عليها ، على أن هذا الوصف يصلح للانطباق على البحث الاحصائي،" (1) أكثر مما يصلح للانطباق على البحث العلمي التجريبي. ولكن فلسفة (بيكون) الاستقرائية برأينا لم تفشل فقط في تجاوز أرسطو كما ذهب الى ذلك (راسل) بل ظلت تدور في فلك الفلسفة الأرسطية ، اذ بقيت مفاهيم الفلسفة المشائية كمفهوم العلة ومفهوم الصورة وغيرها هي الشائعة في نصوص الأورغانون الجديد ، لامن حيث الشكل فقط وانما من حيث المضمون أحيانا (= كمفهوم العلة مثلا).

والحقيقة ان الفكر الفلسفي الاوربي باكملة لم يتحرر من هيمنة الفلسفة الأرسطية ومفاهيمها ، الا بعد أن قطعت العلوم التجريبية شوطا كبيرا ، وعلى الصعيد الفلسفي بالخصوص الا بعد تطور المذهب التجريبي على يد (دافيد هيوم) (1711 - 1776) D. HUME من جهة وظهور الفلسفة الوضعية على يد (أوغست كونت A.Comte) - (1798 - 1857) من جهة أخرى إذ أدت التطورات الكبيرة على الصعيدين العلمي والفلسفي الى تغير جل المفاهيم الشائعة تقريبا ، ومنها مفهوم العلة الذي أصبح علاقة بين ظاهرتين ، ومفهوم القانون الذي

(1) نفس المرجع - ص : 60

صار إطارا للحوادث ، وكل هذا استلزم وجود فلسفة استقرائية جديدة تتجاوز فلسفة (بيكون) ومنطقة التجريبي . وهو ما حققه فيما بعد (ج.س.مل) j.s. Mill (1806 - 1873) في كتابه الضخم " المنطق الاستنتاجي والاستقرائي " (1843) الذي يعتبر اعظم ما كتب في هذا الموضوع.

ولكن نظرا لان المعرفة العلمية التجريبية والمعرفة الفلسفية كذلك قد تجاوزتا بكثير منطق (بيكون) الاستقرائي فيما بعد، ونظرا لاستحالة الشك في أن فلسفة بيكون قد فتحت بابا للافلات من الهيمنة الارسطية ، فان المؤرخ المنصف للفكر الفلسفي لا يسعه الا أن يضع جهد (بيكون) الفلسفي ككل والذي صبه في "الأورغانون الجديد" خصوصا " في مرحلة انتقال بين الفلسفة القديمة والفلسفة الحديثة. " (1)

ومهما قيل عن فلسفة (بيكون) وما سيقال عنها ، فانها وان لم تقدر على تجاوز الفلسفة الارسطية وتحرر منها ، فقد كانت من دون شك "ثلمة في سور الهيمنة الارسطية على الفكر الأوروبي الذي بدأ يتفرض في عصر النهضة" ، (2) وهي الثلمة التي جعلت ذلك الصور يتصدع مع توالي الضربات عليه الى أن انهيار تماما على يد (ج.س.مل).

(1) يوسف الكرم : تاريخ الفلسفة الحديثة ص : 50

(2) د. محمود يعقوبي : مالك العلة ... ص : 142

قائمة المطادر والمراجع :

- (1) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الحديثة - دار القلم - بيروت (بدون تاريخ).
- (2) د. عبد الرحمن بدوي : فلسفة العصور الوسطى - مكتبة النهضة المصرية القاهرة (1962).
- (3) أرسطو : منطق أرسطو تحقيق د. عبد الرحمن بدوي - مطبعة دار الكتب المصرية - القاهرة (1948).
- (4) أرسطو : الطبيعة - تحقيق د. عبد الرحمن بدوي - الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة (1964) ج.1
- (5) د. محمود يعقوبي : مسالك العلة وقواعد الاستقراء عند الاصوليين وجون ستيوارت مل - ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر (1994).
- (6) برتراند راسل : حكمة الغرب - ترجمة د. فؤاد زكريا - المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب - الكويت ط 1 (1983).
- 7) F. Bacon: Novum Organum- P.U.F - Paris (1986) Trad: Malherbe et Jean. Marie Pousseur.
- (8) A. Lalande : les Théories de l'induction et de l'expérimentation, Boivin et Cie Editeurs , Paris (1929)
- (9) E. Bréhier: Histoire de la philosophie - P.U.E Paris (1950) t2
- (10) J.S Mill: système de logique déductive et inductive ,trad: L.peisse , Paris (1880) Librairie Germer Baillère et Ce T1.